العرب
الأحد 2021/08/15
السنة 44 العدد 12149

الفاشية قادمة بخطى حثيثة في بلد حقوق الإنسان

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

تجتاح فرنسا منذ أعوام أحداثٌ تقرض يوما بعد يوم المبادئ التي قام عليها بلد حقوق الإنسان. فمن دعوات عنصرية إلى تطهير البلاد من الأجانب وحركات رجعية تناهض المساواة في الحقوق، إلى الاعتداء على المهاجرين، مرورا بقمع المتظاهرين وتعنيف شباب الضواحي والتضييق على الحريات، يزداد الوضع السياسي تعفّنا يوحي بأن الفاشية لم تعد فرضية مجردة، بل صارت حقيقة ممكنة.

عندما تثار هذه القضية، يبادر بعض المحللين بطرح أسئلة إنكارية من نوع "كيف لبلد حقوق الإنسان أن ينجب الوحش الفاشي؟ ألم يقف موقفا معاديا للفاشية طوال القرن الماضي؟ ألم يتخل حزب التجمّع الوطني (الجبهة الوطنية سابقا) عن مشروعه القومي المتطرف، العنصري والتسلطي الذي اتسم به منذ تأسيسه؟ ألا نشهد انتعاش الرأسمالية الفرنسية بقيادة رئيس شابّ ما انفك يقوم بالإصلاحات اللازمة؟".

غير أن محللين آخرين يرون العكس، ويدعون صراحة إلى ضرورة التصدي قبل فَوْت الأوان لما يعتبرونه خطرا حقيقيا يهدد بعودة الفاشية، وذلك بمقاومة اليمين المتطرف وأتباعه، والوقوف أيضا في وجه السياسات المدمرة التي تساهم في صعوده، وإدانة محاولات فرض واقع لا ينبئ بخير بالقوة.

والأمثلة على تصاعد العنف الراديكالي أو القمع البوليسي كثيرة، رأينا ذلك خلال مظاهرات السترات الصفراء، مثلما رأيناه في المنابر الجامعية، حين اقتحم ملثمون جامعة مونبلييه منذ ثلاث سنوات ليعنفوا طلبة عارضوا قانون التوجيه، حيث تبين أن عميد الجامعة هو الذي حرّض المقتحمين على ارتكاب تلك العملية، دون أن يثير تورّطه غير مواقف محتشمة، سواء من الحكومة ووزارة الإشراف أو من النخبة الثقافية والسياسية.

وفي غياب ردّة فعل قوية يتواصل الخطاب العنصري في بعض وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية، والعنف السياسي، وتحجيم المناضلين، وتواطؤ النخب المسؤولة. أي أن كل عناصر الفاشية باتت اليوم متوافرة، ولو أن المصطلح لا يرد ذكره حتى الآن إلا في دوائر ضيقة، كالمناضلين أو بعض الباحثين مثل عالم الاجتماع أوغو بالييتا الذي أصدر كتابا بعنوان مثير "إمكانية الفاشية، فرنسا، مسار الكارثة"، لاقتناعه بضرورة تسمية الشّر إن كنا نريد مقاومته.

والكاتب إذ يستحضر مصطلح الفاشية من ماض عاشته أوروبا ما بين الحربين، فلاقتناعه بأن التشكيلات الحزبية تشترك في مشروع يهدف إلى إعادة الحياة لمجموعة بشرية "عضوية" عبر التصفية العرقية وإلغاء كل شكل من أشكال النضال الاجتماعي. غير أنه لا يركز على الفاشية كما تجلت في القرن الماضي قدر تركيزه على الظروف التي تُهيّئ لعودتها.

> **المواقع الاجتماعية تطفح بخطاب عنصري معاد لليهود والمسلمين والسود يقف وراءها فرنسيون بيض يحرضون على الكراهية**

ويستعير من أنطونيو غرامشي عبارة "أزمة الهيمنة" ليبين كيف أن النخب الفرنسية، إذ تريد فرض نموذج نيوليبرالي، تقوّض بنفسها أسس التوافق الاجتماعي الذي يستند إليه التراكم الرأسمالي في فرنسا، وتضعف الوساطات الثقافية والأيديولوجية والسياسية، ما يؤدّي إلى "عدم استقرار الهيمنة". والمعلوم أن "أزمة الهيمنة" التي عناها المفكّر الماركسي الإيطالي هي عجز المُهَيمِنين على كسب رضا المهيمَن عليهم، وخاصة قبول أغلبية الشعب شرعية السياسات المتّبعة؛ وهي أيضا أزمة تمسّ الأشكال التقليدية لمناهضة الهيمنة، التي تنهض بها الحركة العمّالية في مختلف فروعها النقابية والسياسية والشيوعية والاشتراكية.

والأزمة الحالية التي تمرّ بها فرنسا في تصور بالييتا لها أوجه ثلاثة: أزمة نيوليبرالية، وتحوّل استبدادي للدولة، وتطور سريع لقومية عنصرية.

في المسألة الأولى، يستعيد بالييتا عددا من التحاليل التي أجريت في منعطف الثمانينات في شتى أنحاء الدول الغربية، ومن مظاهرها سياسة تدمير دولة الرفاه، وعولمة الاقتصادات وأَمْوَلتها، وتفكيك حقوق العمال، وتفاقم التفاوت في الثروة على نطاق عالمي. واستنادا إلى أشغال الأميركية ويندي براون أستاذة العلوم السياسية بجامعة كاليفورنيا، عن الطريقة التي صيغت بها هذه الثورة المضادّة كردّ فعل للموجة الديمقراطية خلال الستينات والسبعينات، يبين الكاتب كيف وُضعت أجندا حقيقية للتخلي عن الديمقراطية، كوسيلة للحد من النزاعات الاجتماعية.

ثم كانت أزمة عام 2008 لتعلن عن فشل الهجمة النيوليبرالية، وهي أزمة لم يغادرها الغرب حتى اليوم. ولئن كانت الحالة عامّة، فإن الكاتب يلاحظ أن فرنسا تعيش وضعا خاصا، حيث كان لموجة الاحتجاجات الاجتماعية، التي تكاد لا تنقطع منذ عام 1995، أثرٌ في ترك مشروع التدمير الثاتشري في منتصف الطريق، مُحدثا أزمة الهيمنة على نحو جعل الحركات الاجتماعية والنخب عاجزة عن إيجاد مشروع مجتمعي متناسق، وفرضه على جميع الأطراف.

أما عن مسألة التحول الاستبدادي للدولة، فالكاتب لا يأتي بجديد، بل يكتفي بإعادة ما تمّ تداوله حتى في وسائل الإعلام عن حالة الطوارئ، ليبين تصلّب سياسات ما أسماه "الذراع اليمنى للدّولة"، أي الشرطة والعدالة، وما ترتب عنها من قوانين استثنائية، استعملتها الدولة للتضييق على الحريات وتقليص حجم المظاهرات العمالية والجمعياتية والحزبية.

ففرنسا تعيش اليوم تحت نظام لا يخضع للديمقراطية البرلمانية أو الليبرالية بالمعنى الكلاسيكي، حيث لرئيس الدولة سلطات تكاد تكون مطلقة، وحيث الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية صوريٌّ تقريبا، وحيث الحريات الأساسية لا تنفك تتآكل بفعل قوانين الطوارئ ومكافحة الإرهاب التي صارت تُستعمل ضد الحركات الاجتماعية وضد جانب من المواطنين، ولاسيما المسلمين الذين صاروا ينعتون بـ"أعداء الداخل"، أي أنها تتبنى إلا ما ندر خطاب اليمين المتطرف.

ولعل أهمّ ما في الكتاب معالجته المسألة الثالثة التي تخصّ الهجمة العنصرية الحالية، ويستهلّها الكاتب بنقد الفكر الماركسي الذي يزعم أنّ العنصرية قناع السلطة وأفيون الشعب، ففي رأيه أن الطبقة الشعبية لا تصوّت لحزب مارين لوبان بحثا عن بديل لحكام فاشلين، بل لكون أفرادها عنصريين في الأصل، معادين للإسلام والسامية؛ وأن القراءة الآلية للفكر الماركسي تحول دون رؤية موقع الأيديولوجيا في التصرفات السياسية.

فمنذ الثمانينات، ثم مع وصول ساركوزي إلى سدّة الحكم، واتهام الآخر المختلف، مهاجرا كان أم مقيما، بتردّي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، انفلتت العنصرية من عقالها، وصارت عنصرا من عناصر الخطاب المعتاد، ليس لدى اليمين وحده، بل لدى قوى اليسار أيضا، (رئيس الحكومة الأسبق الاشتراكي مانويل فالس نموذجا)، وبذلك ما انفك مركز ثقل الجدل الفرنسي ينزلق منذ عدة سنوات إلى اليمين. ثمّ اتخذت العنصرية شكل معاداة للمسلمين ودينهم، حيث رُسم خطّ أيديولوجي قويّ بين الجمهورية و"أعداء الداخل".

هذا الموضوع ليس تلهية للناخبين لصرف أنظارهم عن المسائل الاقتصادية كما يزعم بعض المحللين، بل هو الذي يستقطب الجدل السياسي الفرنسي اليوم، خاصة مع ظهور الصحافي إريك زيمور الذي ما فتئ يزايد على مارين لوبان في كراهيته للعرب والمسلمين والأجانب بوجه عام حتى كسب شعبية دفعته إلى التفكير في الترشح لرئاسيات الربيع المقبل. وكانت "العَلمانية" حصان طروادة في تحول هذه العنصرية، وثورة مضادة جعلت منها أداة ترويض اجتماعي، حيث عزلت الطبقات الشعبية في غيتو ضواحي المدن الكبرى من ناحية، ومن ناحية ثانية، خلقت "كتلة بيضاء" جديدة، أي هيمنة جديدة، هووية وغير محدّدة بالطبقات الاجتماعية التي فتّتتْها السياسات النيوليبرالية، لمنعها من تشكيل كتلة ولو خاضعة.

ويتوقف الكاتب عند الجبهة الوطنية، حزب جان ماري لوبان سابقا، والتجمع الوطني حاليا برئاسة ابنته مارين لوبان؛ هذا الحزب قام بعدّة تعديلات لمشروعه الأصلي، والعدول عن نقاط كثيرة من برنامجه، ولكن الأيديولوجيا الأساسية، القائمة على إعادة بناء هووي للأمة الفرنسية وإنعاشها بعد انحطاط، لا تزال هي نفسها. فالمزايدات العنصرية والمعادية للأجانب هي الحجر الأساس لمشروعه السياسي.

الكتاب محاولة جادّة لتوصيف الوضع الراهن، ربط فيه صاحبه التحاليل التاريخية الحديثة لمفهوم الفاشية، وأصناف التحليل الماركسية، وخاصة الإرث الغرامشي، للتعبير عن مخاوفه مما ينتظر فرنسا لو يتفاقم الوضع ويتحول التجمع الوطني إلى حزب فاشي، مستفيدا من أزمة متعددة الأوجه للسلطة السياسية: أزمة الأيديولوجيا النيوليبرالية، التحول الاستبدادي للدولة، تفجر قومية عنصرية معادية للأجانب، وهي أزمات تمثل أرضية خصبة لظهور هيمنة حقيقية لسلطة فاشية.

لم يكتف بالييتا بوصف الراهن، بل أدان الخطأ الفكري لليبراليين الذين يعتقدون أن الفاشية كانت حادثة عابرة داخل الرأسمالية، وأن الليبرالية والفاشية لا يمكن أن يُنتج أحدهما الآخر، والحال أنّ ثمة رابطا جوهريا في أزمة الليبرالية الإيطالية والألمانية وظهور فرق التدخل squadre d'azione المعروفة بالسكوادرية وكانت تقمع الحركات الاجتماعية قبل الحرب العالمية الأولى، ثمّ تحولت إلى ذراع مسلحة للنظام الفاشي، وفرق الغيستابو النازية؛ غير أن الكاتب لا يستند إلى تحليل ماركسي أرثودوكسي يرى الفاشية أداة مخفيّة للبورجوازية، لأن في ذلك إنكارا للعوامل الأيديولوجية، بل يعترض على هذه القراءة التي لا تهتم إلا بالاستراتيجيات الاقتصادية، دون أن تضع في حسبانها ظهور المسألة العرقية.

حركات متطرفة تولد في العلن

لغة فيسبوك.. لسان جديد أم بلاغة جديدة

عبدالجبار ربيعي
كاتب جزائري

دارت النقاشات الأكاديمية وتدور منذ عقود حول المنهج الذي ينبغي أن نتعامل به مع اللغة وأقصد هنا اللسان؛ أي المشترك الجماعي من حيث هو حصيلة للمنجزات والاستعمالات الكلامية من الأفراد المتخاطبين المنتمين إلى مجال لغوي واحد، وهو في هذه الحال اللغة العربية، فبين من يرى أن اللغة الفصحى بقواعدها وأصولها المعيارية واستخداماتها الأصلية هي اللغة التي يجب أن يُحتكم إليها انطلاقا من مبدأ "الصواب والخطأ اللغوي"، ومن يرى أن اللغة ما هي إلا حصيلة تطورات وتغيرات تاريخية ومجتمعية وأن مبدأ "التواضع والاصطلاح" بمفهومه العام هو المبدأ الذي ينبغي أن يرجع إليه في تصوّر ماهية اللغة نفسها.

أصحاب التوجّه الأول هم المعياريون الذين يعدّون اللغة العربية الفصحى مقياسا لإنتاج الخطاب اللغوي واستقباله، ويرون أن العاميات في الأصل لحن، وليست من باب التطور اللغوي، على معنى أنها أخطاء في استعمال العربية إضافة إلى ما يلحق هذه العاميات من إدراج للغات أخرى، وتركيب غير مستساغ بين الفصحى والعامية، وبين الفصحى وغيرها من اللغات واللهجات.

أما أصحاب التوجّه الثاني فهم الوصفيون الذين يعتمدون، إجمالا، على التنظيرات اللسانية الحديثة، والمناهج والمقولات ذات المنشأ الغربي التي ظهرت في الساحة العربية بشكل بارز منذ بدايات القرن الماضي، وهم، مثل سابقيهم، طيف واسع يبدأ بالأكثر تشدّدا والأقل مرونة وينتهي بالأكثر مرونة والأقل تشدّدا.

وبعض هؤلاء يرفضون العلوم اللسانية التقليدية كالنحو والصرف والبلاغة أو يرفضون التوسّع فيها، وينادون بالاكتفاء بما يقيم اللسان منها، ولو اقتصر الأمر على نطق أواخر الكلام ساكنا دون حركات إعرابية، أو التواصل باللهجات العامية والكتابة والتعليم بها واستخدامها في الفضاء العمومي مثلما يحدث في الإعلام المرئي والمسموع اليوم.

وبعضهم يدعو مباشرة إلى الأخذ بالمعطيات اللسانية الغربية دون الرجوع إلى التراث اللساني العربي إن على مستوى مناهج الدراسة والتحليل أو على مستوى المادة العلمية نفسها؛ أي أنهم يرفضون مناهج الدراسة القديمة، ويرفضون كذلك المفاهيم والمصطلحات العلمية التقليدية ويدعون إلى إحلال المفاهيم والمصطلحات اللسانية الحديثة محلها، على سبيل المثال يمكن الإشارة إلى البلاغة الجديدة والأسلوبيات في مقابل البلاغة التقليدية. أهي أخطاء لغوية؟

إن الناظر في ما يتم تداوله في فيسبوك، وما يتم التعبير به عن الوقائع اليومية يرى أن الذين يكتبون أو يتواصلون فيه، عموما، متوزعون بين فئات شتى، تختلف في ما بينها في المستوى العلمي والمعرفي العام، وفي مستوى المعرفة باللغة العربية وغيرها من اللغات الشائعة، وفي المواقف والقناعات الأيديولوجية وما يتصل منها بالموقف من اللغة العربية، وهذا التفصيل يمكّننا من إدراك أن الحكم على لغة فيسبوك بأنها لغة جديدة بناء على قاعدة التطور اللغوي والتواضع السالفة حكم فيه الكثير من التعميم والاختزال.

> **البلاغة بلاغات ثقافية وتاريخية أي صيغ ذهنية ومحمولات لغوية وأساليب وألفاظ تختلف باختلاف العصور والمراحل التاريخية**

فمن الفيسبوكيين من يكتب أو يتواصل باللغة العربية الفصحى، في الأغلب الأعم، سواء في منشوراته أو في تعليقاته.. ومنهم من يكتب بغير الفصحى، ولكنه مع ذلك يرى أن لغته مزيج بين الصواب والخطأ. وهكذا..

وقد أشار الجاحظ قديما إلى أن العامة يميلون إلى التخفيف، ويفضّلون التعبير بأقل الألفاظ والحروف، بل نقل الجاحظ تعريفا للبلاغة على أنها: الإيجاز، ومعنى البلاغة نفسه مشتق من البلوغ؛ أي الوصول والانتهاء، فأقل ما أبان وأعرب به المتكلم عن غرضه وأوصل الرسالة في مستوى علم المعاني هو المرتبة الدنيا المطلوبة في التواصل، ثم ينتقل المتكلم بعدها إلى مرتبة التحسين وهي البديع والبيان، والبلاغيون يوردون البيان، هنا، بمعنى الجمال في استخدام اللغة وهو ما يسمّونه: معنى المعنى، فأنت حينما تقول: كثير الرماد فإنك لا تريد معنى كثرة الرماد الذي يدل على كثرة الطبخ، بل تريد ما تدل عليه كثرة الطبخ من الكرم والجود وحسن الضيافة وتواترها في من تصفه بهذا الوصف.

وتأسيسا على ما سبق نقول إن البلاغة بلاغات؛ فهي أوّلا بلاغة المتكلمين، وهي ثانيا ذلك العلم الذي يدرس تلك البلاغة بمنهج ورؤية محددة ذات أبعاد تاريخية وثقافية.

وهي ثالثا بلاغات ثقافية وتاريخية؛ أي صيغ ذهنية ومحمولات لغوية وأساليب وألفاظ تختلف باختلاف العصور والمراحل التاريخية والبيئات الثقافية. لكن العبرة في كل ذلك ليست بالألفاظ التي يتلفظ بها المتكلمون على ضروب اختلافاتهم الكثيرة، ولكن بالمعاني؛ لأن المعاني خادمة للألفاظ كما يقول عبدالقاهر الجرجاني، والتركيب يتحدّد من خلال المعنى وليس العكس، ولكل تركيب وظيفة يؤديها في تحقيق معنى معيّن، وهنا نصل إلى بيت القصيد، وهو البيان العربي، فما دام كل تركيب أو أسلوب كلامي يحقق معنى محدّدا؛ فإن ذلك يعني أن التعبير عن المعاني المتعدّدة، التي يفرّق بينها أحيانا خيط رفيع، بتركيب واحد من آثار التواصل بالعاميّات واللهجات والازدواجية اللغوية (خطاب فيسبوك وتويتر)؛ التي اختزلت المعاني الدقيقة وهي ما يميّز العربية بشكل خاص في معان عامة وسطحية وأفقية إلى حدّ كبير؛ وذلك لأنها تعبّر بعاميّة، أو مزيج غير متجانس هو في الأصل كسر للقواعد اللغوية.

لكن المعضلة التاريخية اليوم لا تتوقف عند هذا الحد من الاستشكال؛ بل يتعدى الأمر ذلك إلى مسألة اللغة العلمية بالمفهوم العام، خاصة ما كان منها من ضرورات الحياة مثل التعبير عن الكمبيوتر ومكوّناته، وأنواع وسائل النقل المخترعة ومركّباتها، وأسماء الأدوية، والألبسة، والأطعمة الحديثة، وغير ذلك من المستلزمات التي لا غنى للمتكلمين عنها.

فهذه المسمّيات ابتكرت في الغرب بحكم أنه هو الذي ينتج المعرفة، وكثير منها حافظ على اسمه الأجنبي، وبما أنه منتج علمي فاسمه سيكون دقيقا إلى حد كبير، وهنا يجد روّاد فيسبوك كتمثيل للواقع الاجتماعي أنفسهم في مفارقة كبرى بين اختزال معاني العربية وهي لغة البيان والتفصيل والتدقيق، وتدقيق المعاني الأجنبية؛ لأن الضرورة تحملهم على ذلك.

وهكذا لا نستطيع التعامل مع لغة فيسبوك تعاملا وصفيا مباشرا، وإن كان الوصف فيما يبدو مرحلة أولى من التصوّر المعياري؛ لأن الشرط التاريخي والمعرفي يجعل لغة فيسبوك مرتبطة بالواقع الذهني، والنفسي، والعقلي، وآثار المثاقفة الحضارية، لا مجرّد لغة تكتب أو تقال، ولا مجرّد تطوّر دلالي؛ إذ أن التطوّر الدلالي لا يمكن أن يكون بمعزل عن الشرط التاريخي، ولا عن التخطيط والاستراتيجيات اللغوية التي تقوم على مبدأ المقايسة والأصل المرجعي، والبناء الخاضع للأهداف والغايات المجتمعية.

ص10 وص14 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

أي لغة للعرب اليوم (لوحة للفنان ساسان نصرانية)